« لذعات بريئة ... » (٥)

شاعر الشباب

نقرأ في الصحف العربية منذ عشر سنين أو تزيد، لقب شاعر الشباب، فيسبق الى الذهن ان المقصود به أحمد رامي، لانه لم يكن يعاصر في ذلك الحين من هو اصغر منه يأتي بما أتى به هذا الشاعر الرقيق، فالى مصر الكريمة اذاً يرجع فضل اختراع هذا اللقب، ومصر بحق بلاد العجائب في اختراع الالقاب فمنها سمعنا لقب أمير الشعراء وشاعر النيل وشاعر القطرين وشاعر الشباب، وهذا الاخير لقب جميل نرى في كل جهة تنازعاً مستمراً حول الاستئثار به، حتى في مغربنا تبارك الله يوجد من ينازع علال في لقبه الجميل! والجزائر كذلك فيها شاعر شبابها محمد العيد أو مفدي زكرياء، وفي تونس نجد المرحوم الشابي وبورقيبة وكركاكه كلٌّ يرفع صوته ويحكم الناس، وقد قرأت في عام مضى بمجلة تونسية استفتاء القراء فيمن يستحق هذا اللقب بتونس فكانت الردود تترى على المجلة فاضطرت ان تغلق الباب وتقفل الحساب، وفي مصر اليوم محمود الخفيف يتمتع بهذا اللقب، وفي الشام انور العطار وفي الحجاز الغزاوي، وفي فلسطين ابراهيم طوقان وغيرهم في بقية مختلف الجهات، وأخونا علال قد سمعنا صوته يتجاوب في احدى قصائده العامرة يدافع عن حقه في اللقب ويسجله امام التاريخ ويبعثه شعراً الى الناس:

فأنا شاعر الشباب احييكم فيهتز قلبي المحزون
وانا شاعر الشباب احييكم واني بحبه مفتون!

وليس من بأس ان يفتخر الشاعر بشعره ويعلن اعتزازه بنظمه ونثره فكل شاعر ببنات افكاره مفتون وعلال بحق جدير ان يكون شاعر الشباب المغربي ولسانه الذرب فقد عرفنا له من الشعر القومي آيات معدودات وناهيك بقصيدته في معركة وادي المخازن وهي تصلح ان تكون ملحمة شعرية تاريخية على الاسلوب القصصي الجديد ولشاعرنا في الايام الاخيرة ميل الى هذا الضرب القصصي المفيد ينمي به ثروة الادب ويخلد به أهم الوقائع في التاريخ، وفي التاريخ المغربي من الحوادث والوقائع ما يدعو الشاعر للقول ويبعثه على الابداع، وله من هذا النوع قصيدة في جمعية (الهررة) يجد القارئ في قراءتها لذة ومتاعاً لما احتوت عليه من لذعات وجمعته من بليغ النكات وهذه القصيدة تنيف ابياتها عن المائتين، وما اطول نفس علال اذا امتد، وما اشغفه بالمطولات حتى لقد يذكرنا بالشريف الرضى وتلميذه مهيار، ولقد يسرف بك علال في قصائده تطويلاً حتى تجف القافية لديه ويضطر لاستعمال الغريب فنضطر معه لوضع المعجم بجانبنا لحل ما استغلق وفك ما استشكل، وهو مع هذا الاسراف في الطول قلما يسف في بيت من الابيات أو يخرج عن وحدة القصيد اللهم الا قصيدته في شوقي فانها خليط من الافكار ومجموعة صور وهذا من عيوب الشعر التي عدها النقاد على الشعراء، اما بقية قصائده الممتدة القوافي وفي ضمنها قصيدة العرش التي لم تطبع بعد وتعد ابياتها زهاء المائة والسبعين فهي بديعة في بابها.

ولقد يعجبك من شعر علال ما قاله اخيراً وبالاخص ما قاله بين جدران السجن وديار المنفى، وما بعث به لاخوانه وعشيرته يوم كان متغرباً في اسبانيا وباريس — ولا أدري هل في باريس غربة — وهذه ابيات من شتى القصائد:

حمامة الروض قد هيجت اشجاني
لما شدوت بلحن منك ابكاني
هل أنت مثلي في وجد وفي شجن
نأيت قبلي عن اهل وجيران
نبت بك الدار حتى لا أنيس ولا
خلٌّ يواتيك في سرّ واعلان
شدوت في هاته الارض التي جهلت
ما في غنائك من شجو واحزان

وان كان موضوع القصيدة من القديم المعاد فهي على كل حال صدى قلب ينطق بالشكوى ويفيض بالحنين الطافح به قلب كل غريب، واظن لا فرق بينها وبين هذه الابيات لشاعر قديم قال:

يا طائر البان قد هيجت اشجاني ☆ وزدتني قلقاً يا طائر البان
زدني من النوح واعضدني على شجني ☆ حتى ترى عجباً من فيض اجفاني
ناشدتك الله يا طير الحمام اذا ☆ رأيت يوماً هموم القوم فانعاني
وقل طريحاً تركناه وقد فنيت ☆ دموعه وهو يبكي بالدم القاني

ونحن اذا تصفحنا شعر علال لناخذ عنه خلاصة نجد مطروقاته لا تكاد تخرج عن موضوعين: ديني وسياسي الا قليلاً وهما أهم ما

يشغل باله ويأخذ من شعره القسط الوفير وله الحق فالدين قد تغير صفاؤه بهذه الديار واندسّ بين رجاله دجالون لا يؤمنون بالله الا امام الناس ولا يتظاهرون بالعلم والصلاح الا في حلقة المخدوعين من العوام حتى اذا خلوْا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون، وما نسميه شعراً سياسياً في ديوان علال ان هو الا صرخة ألم من سوء يجترح وشكوى من ظلم مباح! أما مظهر الجمال الطبيعي في شعره فربما كان معدوماً اللهم الا ابيات معدودة متفرقة هنا وهناك أتت عفواً وعرضاً غير مقصود، وهذا ما انتقدناه على شعرائنا مراراً وناديناهم تكراراً ان في مغربنا رقة النسيم وصفاء الاديم وسحر الطبيعة وجمال الربيع والواناً من الحسن وافناناً من الجمال لو ارادوا الخروج عن مطروقاتهم التقليدية ولكنهم يعتذرون بالبيئة والوسط وما هما باكثر انحطاطاً من بقية الجهات لو يسمعون أو يعقلون! وما هو التمرد على التقليد الذي نرى العمل به جارياً في امم اخرى، أليس سوى خروج عن البيئة الراكدة، وتمزيق سجف الجهل المظلم، والانطلاق في سماء الحرية المبتغاة؟ اذا كنا نريد حياة جديدة والحياة كدولاب لا يفتأ يدور فحتمٌ ان ندور مع الحياة ونتطور مع الوجود في كل شيء.

ـ شعر المرأة

لشاعرنا قصائد متعددة في خصوص هذا الموضوع الطريف، وتعد المرأة في الشعر شيئاً جديداً بالمغرب ولا أقول من ناحية النسيب فهذا موضوع حفيت منه الالسن وحفل به الشعر وربما كان نافي موضوع مطروق في الشعر المغربي بعد المديح، ولكني اقصد ناحية اخرى جديرة بالتنويه وخليقة بالرواج تلك هي طلب اصلاح المرأة وتعليمها والنهوض بها من درك الخمول والجهل الى مستوى يليق بكرامة المرأة ويحسن مركزها في الوجود، والمرأة بحق لا تزال مشكلة المشاكل في كل جهة، واكثر هذه المخلوقات البشرية عندنا تحسب ان المرأة كأداة للطبخ والكنس ولم تكن الا حمار البيت يأكل ليركب ويشبع ليقوى على حمل الشقاء، اما ان تتعلم المرأة لتربي ابناءها خير تربية فاحذر ان تلفظ بهذا فتعد مارقاً زنديقا، والام بلا شك مدرسة البيت وفي يدها نشأة الولد ان شاءت ان تصلحه ولها أن تنشيئه نشأة فاسدة فليس لها من معقب في تكوين الطفل الوديع، ونخشى أن نطيل الحديث ويطغى القلم للافاضة في الموضوع وله وقته بعد حين يوم تستيقظ الامة من رقدتها وتنظر لنصفها الاشل وشطرها المكبوت فتهب لاصلاحه وتقويم ما عوّجته الايام، ولننظر الآن لشعر علال في الموضوع فقد يلفت نظري مثل هذا النوع ويطيب لي أن أرى حوله حركة مباشرة في مجتمعنا يقول علال من قصيدة طويلة القيت في مؤتمر طلبة شمال افريقيا الذي عقد ببباريز في سنة فارطة:

انا سئمنا عيشة مبتورة ✡ ما أن نطيق بها نظاماً محكما
البيت عمدته الفتاة فان تدم ✡ في الجهل اضحى ذا العماد مهدما
وغدت حياة المرء في أرجائه ✡ ليست تطيق غبطة وتبسما
فالى متى تبقى الفتاة بجهلها ✡ وأخو الفتاة من المساعد معدما

ولقد ضرب للناس مثلا من التاريخ وهو يشهد ان المرأة في عصور غابرة كان لها الشأن الكبير والقدح المعلى في الدين والاخلاق والسعي المشكور في حفظ الكيان وحوزة البلاد:

كم سجل التاريخ في حدق اللقى
في الدين في الاخلاق في حفظ الحمى
في كل ناحية ضربن باسهم
وظهرن في كل النواحي انجما

وله قصيدة اخرى في الفتاة العربية بمناسبة ما أظهرته السيدات الفلسطينيات في حوادث اخيرة يقول في ختامها:

ضمّي الصفوف ووحدي ✡ لا تخشي من أي عاد
لا تتركيها فرقة ✡ ترمي بنا في كل واد
سيري الى الميدان يحدو ✡ ك الثبات والاعتقاد
انا جميعاً جندك المعـــتز بالام الجواد
فتقدمينا للأما ✡ م لترفعي علم الجهاد

مرحى ياشاعر الشباب! لقد صرخت من الاعماق صرخة يجب أن تخترق الاذان الصم وتصل الى قلوب غلف ولكني أسألك ما بال هذه الصرخة لم توجه الى رجالنا فهم أحوج من النساء الى موعظتك الحسنة واستفزازك لشعورهم الكمين، أما نساؤنا الرقيقات العواطف الفاترات اللواحظ الناعمات الخدود فرفقا بهن يا علال من السير في الطليعة وخوض المعارك وحمل البنود، أم أن رجالنا الذين كثروا وما نفعوا وازدحمت بهم رقعة الوجود وضاقت بهم الارض لم يستفزهم شيء، فعقولهم مصدوءة، وأفكارهم مصطولة، هيهات أن يؤثر فيهم قول البليغ وسحر الشعر!

هذه نماذج قليلة من شعر علال تظهر لك جانباً من فكرته في اصلاح المرأة ، ولنبدأ الآن بما عنَّ لنا من انتقادات خفيفة انتجتها جولة سريعة في شعره المطبوع بالجزء الثاني للادب العربي بالمغرب تحت عنوان (سيعرفني قومي!!) :

أبعد مرور الخمس عشرة العب ✡ واهو بلذات الحياة واطرب
ولي نظر عال ونفس أبية ✡ مقام على هام المجرة تطلب
وعندي آمال اريد بلوغها ✡ تضيع اذا لاعبت دهري وتذهب

هذه أبيات من قصيدة يظهر أنها عن مهجورات الشعر القديم ويغلب على أبياتها الفخر التقليدي البائد وكلها تعبر عن مطمح وتشهد بعظمة وتنطق بكبرياء وليس من شك أن صاحبها يقصد بها مضارعة قصيدة الكميت الاسدي ومطلعها :

طربت وما شوقاً الى البيض أطرب
ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب

وقد كنا أيام الدراسة نسلي النفس بهذه القصيدة الاسدية فتعجبنا ديباجتها ويروقنا فخرها وشمم صاحبها الهاشمي على أنها من الشعر القديم فحسب ، ولها في النفس تأثير موسيقي يسحر قارئها ويدعوه للعودة اليها وقد عارضها الشريف الرضى بقصيدته المعروفة :

لغير العلى مني القلى والتجنب
ولولا العلى ما كنت في الحب أرغب

حتى أن الشاعر البارودي رحمه الله لم يشأ وهو المشهور بمعارضته لفحول الشعراء المتقدمين أن تفوته الفرصة وتكون له اخرى في هذا الباب فقال :

سواي بتحنان الاغاريد يطرب ✡ وغيري باللذات يلهو ويعجب

وهذا البيت لا يختلف بشيء عن مطلع علال ، وما يدرينا أنه عرف من نفسه المقدرة الكافية في اجادة التقليد والمحاكات ففاضت شاعريته بمقطوعته واستحقت أن تضاف للمعارضات يوم يرجع ما كان لها من سابق الاعتناء والاكبار من لدن الشعراء بيد انها لا تخلو من كبير فائدة ومن منا لا يحفظ هذا البيت الذي أثار علينا ضجة مفتعلة يوم ظهرت في كتاب الادب العربي :

وكنت أرى تحت العمائم حاجة
فما هي الا أن يدوم المرتب

بيت وحده يقوم مقام قصيدته وينطق بحكمة غالية ، وقد ستر عيوب القصيدة وأمسك القلم عن الاسترسال وتتبع بقية الابيات فلنمر مسرعاً ولننظر في التائية لعل فيها خيراً للادب وقد لفت نظري هذا البيت منها :

وليس علي اذا غضبوا ✡ وكانوا الوشاة وأردى الوشاة

فما معنى اردى الوشاة ؟ في اللغة ردي فلان يردى هلك وهو لازم فيكون المعنى : هم أكثر الوشاة ردىً وهلاكاً ، وهذا المفهوم وبعيداً أن يكون هو المقصود لبرودة معناه ، وربما غرض الشاعر أن يقول : وكانوا الوشاة وأكثر ارداء من الوشاة فان كان هذا ما يقصده شاعرنا فالمعنى لا يعطيه ، وقد علمت أن ذلك لا يبنى الا من الثلاثي ، والثلاثي لو فرضناه لا يسمح بهذا المعنى المرغوب .

نتخطى هذه القصيدة الى الشهابية الثاقبة لعلها تسلم من النقد وتريحنا من التمحيص فيعترضنا عند التلاوة هذا البيت :

تخذت دينك قول الحق بينهم
والحق أرجح ميزانا من الذهب

المعنى المتبادر من قول الشاعر أن الحق أكثر رجحانا في الوزن من الذهب وقد يحتاج هذا الى دليل يستند عليه ويشهد برجحان الذهب على غيره من بقية المعادن ولعله مخطئ في حكمه فان الحديد والرصاص ربما كانا أرجح ، أقول ربما تحرياً من الحكم المطلق وأنا وحقك لم أختبر وليس لاخيكم منها قليل ولا كثير ، وفي الشطر بعده يقول :

وقمت بالصدق في اصلاح السنة
والصدق أعظم اصلاحاً من الشغب

ومتى كان الشغب يصلح حتى يقول الشاعر ان الصدق أعظم اصلاحاً منه ، وفي أي شيء يجتمع الشغب والاصلاح حتى تصح المقابلة بينهما ؟ هذا ما لست اعلمه ، ويقول :

حق على الدين ان الدين مرتعه
عظيم عاقبة تنجي من الكرب

آمنا بالله وبالدين الصحيح الذي يكسو الكلام حلاوة في المعنى وطلاوة في اللفظ ! وأما هذا الموصوف بكون مرتعه عظيم عاقبة تنجي من الكرب فلا بأس ان اعلن ذو الذوق السليم ان الكفر الادبي به أقرب من الايمان الذي تجده عند اصحاب الاذواق السقيمة ، ويقول :

راموا المراتب فابتاعوا دياناتهم ✡ كذاك يفعل من يغتر بالرتب

يقال باع وشرى بمعنيين متضادين في كل واحد منهما غير أن اشترى لا نعرفه الا بمعناه المعروف وضده ابتاع ، والشاعر هنا يقصد بابتاع باع وهو الصحيح ان أراد أن يستقيم له المعنى .

دحرت (موران) لما جاء منتقداً
دحراً أحل به في جحفل لجب

الصواب حل في المكان ولا باس أن تقول حل به والباء للتعدية كما تقول حللت بصاحب في المنزل ويقال اذا عديته بالهمز أحللته المكان وأصله حلّ فلان المنزل الفلاني هذا هو المعروف ، وأما أن يقول شاعر (كشاعرنا) أحل به فغلط يجب التنبه له وقد سبق للشاعر الشنجيطي أن وقع في مثل هذا الغلط وأبدينا له ملاحظتنا بتواضع فأرغى وأزبد وانطلق يسبنا ، ويقول علال :

بني الجزائر هبوا من رقادكم ☆ ولتستضيئوا بنور أزهر الشهب

والنور مضاف الى أزهر فكان ذلك مما يسوء الخليل بن أحمد وان كانوا جوزوه من باب الزحافات ولكن النحويين أصحاب الاجرومية لا يغضون عن قوله : «ولتستضيئوا» لانهم نصوا — والعهدة عليهم — على أن العرب لا تقول : لتخرج ، لتقم ، لتفهم ، الا على وجه الندور والشذوذ والشاذ لا يتبع وقد يركن اليه من يريد العناد وطول الجدال .

ولعلال قصيدة في الشباب الممثل منسجمة اللفظ رائقة السبك وقد استوقفتني قافية هذا البيت :

آه ! لو دام ذلك العزم فينا ☆ لم تكن في الورى بلاد هجين

(بلاد هجين) ! لقد آمنا بسحر الشعر وكفرنا بهذه الهجنة ، وان كان المجازيون البلداء يسيغونها باخلاقهم المتسعة وتجاوزهم فوق المحدود ، ويقول في مقطعة (السلم) :

فيغدو نبي السلم قائد فيلق ☆ ويصبح سفر القدس وهو سفير

لم ندر ما القصد بالشطر الاخير وأي معنى أثبته فيه ، بيد أنه لولا الجناس الظاهر فيه لتداعى ركناً فركنا حتى أن الوزن كاد يفر فراراً وعلم ذلك عند منشئه الفاضل .

هذه نظرة عجلى في شعرنا بغتنا ونؤمل أن نرى ديوانه مطبوعاً لنتدارك بالنقد ما فات وليس المتدارك بفائت .

(ابن عباد)

رأيان :

١) التفكير المغربي الحديث

قد يرى الناظر في تاريخ المغرب الحديث «تاريخه العقلي» شيئاً من التطور ويحس ببعض الانقلاب الذي نشأ عن انبثاق عصر النهضة الحديثة ، ولقد يحار المرء اذا رأى هذا التطور السريع وهذا الانقلاب الذي بغته بغتاً يذهب غير مذهبه الذي ينبغي له ويسير في غير ما هدى ولا رشد ، ذلك أن التفكير الحديث تجرد عن التعمق في بحث المسائل واستقصائها ولازم الضروريات والظواهر التي لا تحتاج الى بحث عميق وجهد الفكر واتعاب النظر ، ولقد نجم عن ذلك اندثار بعض المسائل العلمية والتاريخية والادبية ونشأ أيضاً جمود في الفكر وخمول في العقل وهذا شيء — بلا شك — لا تحمد له عقبى وسيحدث عنه تقهقر وانحطاط في التفكير المغربي السديد من حيث انا نريد ترقيته الى أوج الكمال والذروة العليا .

ولقد يستطيع كل من يلم بشيء من تاريخ المغرب وتاريخ بعض رجاله ويعرف تفكيرهم العميق ان يلقي نظرة عجلى وأن يقارن مقارنة بسيطة بين التفكيرين فبلا شك سيجد البون شاسعاً والفرق ظاهراً بيناً .

يرى المقارن ان لا نسبة بين هذين العصرين فبينما يرى العصر القديم الذي يسمى — بحق — عصراً ذهبيا قد انتج من المفكرين من تطأطأ لهم الرءوس امثال الفيلسوف الكبير عبد الرحمن بن خلدون أول من بحث في علم العمران والاجتماع (المتوفى بمصر سنة ٨٠٨ هـ) وغيره ممن يفخر بهم العرب على العموم والمغرب على الخصوص اذا به يرى هذا العصر الذي تيسرت فيه اسباب التقدم والنبوغ وترجمت فيه الى اللغة العربية علوم وفنون لم تكن بها من